هدي السلف الصالحين في نصيحة السلاطين

دعونا العلماء في الجزء الماضي الى نصيحة السلاطين واننا نذكرهم في هذا الجزء ببعض ما روى عن علماء السلف في ذلك

جعل الامام الغزالي الباب الرابع من كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خاصا بأمر الامراء والسلاطين ونهيهم وقال في أوله مانصه: «قد ذكرنا درجات الأمر بالمعروف وان أوله التعريف وثانيه الوعظ وثالثه التخشين في القول ورابعه المنع بالقهر في الحمل على الحق بالضرب والعقوبة. والجائز من جملة ذلك مع السلاطين الرتبتان الاوليان وهما التعريف والوعظ وأما المنع والقهر فليس لآحاد الرعية مع السلاطين فان ذلك يحرك الفتنة ويهيج الشر ويكون ما يتولد عنه من المحذور أكثر. وأما التخشين في القول كقوله: ياظالم يامن لايخاف الله: وما يجري مجراه فذلك ان كان يحرك فتنة يتعدى شرها الى غيره لم يجز وإن كان لايخاف الا على نفسه فهو جائز بل مندوب اليه فقد كان من عادة السلف التعرض للأخطار والتصريح بالانكار من غير مبالاة بهلاك المهجة والتعرض لانواع العذاب لعلمهم بأن ذلك شهادة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «خير الشهداء حمزة بن عبد المطلب ثم رجل قام الى امام فأمره ونهاه في ذات الله تعالى فقتله على ذلك» (١) وقال صلى الله عليه وسلم «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» (٢) ووصف النبي صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال «قرن من حديد لاتأخذه في الله لومة لائم وتركه قوله الحق ماله من صديق» (٣)

ولما علم المتصابون في الدين ان أفضل الكلام كلمة حق عند سلطان جائر وان صاحب ذلك اذا قتل فهو شهيد كما وردت به الاخبار قدموا على ذلك

---

(١) الحديث قال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الإحياء رواه الحاكم من حديث جابر وقال صحيح الاسناد وذكر له شارح الاحياء روايات أخرى

(٢) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث أبي سعيد وله ألفاظ وطرق ذكرها الشارح

موطنين أنفسهم على الهلاك محتملين أنواع العذاب وصابرين عليه في ذات الله تعالى ومحتسبين لما يبذلونه من مهجهم عند الله. وطريق وعظ السلاطين وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ما نقل عن علماء السلف وقد أوردنا جملة من ذلك في باب الدخول على السلاطين من كتاب الحلال والحرام» اه ما كتبه الغزالي في مقدمة الباب

أقول قوله انه ليس لآحاد الرعية التصدي لمنع السلطان عن المنكر بالقهر صحيح لا لما يترتب عليه من الفتنة فقط بل هناك علة أخرى هي أظهر وأولى بالتقديم وهي أن إكراه الآحاد من الرعية للسلاطين محال وطلبه عبث لا يأتي من عاقل ولهذا المعنى فرض الله تعالى الدعوة الى الخير والامر بالمعروف والنهي عن المنكر على أمة تتألف وتستعد لذلك كما بينا في الجزء الماضي والأمة تستعد لكل شيء بقدره وقوة الامة أشد بالاتحاد والاجتماع من قوة السلطان لأن قوته منها وقوتها من ذاتها ويد الله مع الجماعة. وسنعود في فرصة أخرى الى التفصيل في هذه المسألة. فانما نقصد الآن الى بيان شيء من هدي السلف في نصيحة الامراء والسلاطين تذكيرا للعلماء وكشفا للقراء عن الفرق بين حالنا اليوم وحال سلفنا أيام كانت الامة عزيزة قوية والدين راسخا معمولا به

ندع مما أورده الغزالي من هدي السلف في هذا الباب آثار الصحابة لئلا يقال انهم لا يقاس عليهم في بذل أرواحهم في سبيل الحق وان من كان يغلظ على عمر بن الخطاب في الحق كان آمنا عقوبته ليقينه بعدله ودينه ونذكر شيئا مما أورده عن بعدهم قال

«وعن الاصمعي قال دخل عطاء بن أبي رباح على عبد الملك بن مروان وهو جالس على سريره وحواليه الاشراف من كل بطن وذلك بمكة وقت حجه في خلافته فلما بصر به قام اليه وأجلسه معه على السرير وقعد بين يديه وقال له يا أبا محمد ما حاجتك؟ فقال يا أمير المؤمنين اتق الله في حرم الله وحرم رسوله فتعاهده بالعمار، واتق الله في أولاد المهاجرين والانصار فانك بهم جلست هذا المجلس، واتق الله في أهل الثغور فانهم حصن المسلمين، وتفقد أمور المسلمين فانك وحدك المسؤل عنهم، واتق الله فيمن على بابك فلا تغفل عنهم ولا تغلق

بابك دونهم فقال له أجلس ثم نهض وقام فقبض عليه عبد الملك فقال يا أبا محمد إنما سألتنا حاجة لغيرك وقد قضيناها فما حاجتك أنت ؟ فقال مالي الى مخلوق حاجة ثم خرج فقال عبد الملك هذا وأبيك الشرف »

أقول هذا نصح علماء الدين لمثل عبد الملك الذي كان أول معلن للاستبداد في الاسلام حتى قال على المنبر: من قال لي اتق الله ضربت عنقه: واين ملوك زماننا من عبد الملك في سياسته وفتوحاته ألا انهم احق بالنصيحة منه ولكن أين الناصحون ! قال الغزالي

« وقد روي أن الوليد بن عبد الملك قال لحاجبه يوما قف على الباب فاذا مر بك رجل فأدخله علي ليحدثني فوقف الحاجب على الباب مدة فمر به عطاء بن أبي رباح وهو لا يعرفه فقال ياشيخ ادخل الى أمير المؤمنين فانه أمر بذلك فدخل عطاء على عبد الملك وعنده عمر بن عبد العزيز فلما دنا عطاء من الوليد قال السلام عليك ياوليد قال فغضب الوليد على حاجبه وقال له ويلك أمرتك أن تدخل الي رجلا يحدثني ويسامرني فأدخلت الي رجلا لم يرض أن يسميني بالاسم الذي اختاره الله لي (يعني أمير المؤمنين) فقال له حاجبه مامر بي أحد غيره ثم قال لعطاء اجلس ثم أقبل عليه يحدثه فكان فيما حدثه به عطاء أن قال له بلغنا ان في جهنم واديا يقال له هبهب أعده الله لكل امام جائر في حكمه فصعق الوليد من قوله وكان جالسا بين يدي عتبة المجلس فوقع على قفاه الى جوف المجلس مغشيا عليه . فقال عمر لعطاء قتلت أمير المؤمنين . فقبض عطاء على ذراع عمر بن عبد العزيز فغمزه غمزة شديدة وقال له ياعمر ان الامر جد فجد. ثم قام عطاء وانصرف فبلغنا عن عمر بن عبد العزيز انه قال مكثت سنة أجد ألم غمزته في ذراعي

« ويروى عن ابن أبي عائشة ان الحجاج دعا بفقهاء البصرة وفقهاء الكوفة فدخلنا عليه ودخل الحسن البصري رحمه الله آخر من دخل فقال الحجاج مرحبا بأبي سعيد الي الي ثم دعا بكرسي فوضع الى جنب سريره فقعد عليه فجعل الحجاج يذاكرنا ويسألنا إذ ذكر علي بن أبي طالب رضي الله عنه فنال منه

وقلنا منه مقاربة له وفرقا (أي خوفا) من شره والحسن ساكت عاض على إبهامه فقال ياأبا سعيد مالي أراك ساكتا قال ماعسيت أن أقول قال اخبرني برأيك في أبي تراب قال سمعت الله جل ذكره يقول (وما جعلنا القبلة التي كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وان كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع ايمانكم ان الله بالناس لرؤف رحيم) فعلي ممن هدى الله من أهل الايمان فأقول ابن عم رسول الله وختنه على ابنته وأحب الناس اليه وصاحب سوابق مباركات سبقت له من الله لن تستطيع أنت ولا أحد من الناس ان يحظرها عليه ولا ان يحول بينه وبينها وأقول ان كانت لعلي هنات فالله حسيبه ، والله ماأجد فيه قولا أعدل من هذا فبسر وجه الحجاج وتغير وقام عن السرير منفضبا فدخل بيتا خلفه وخرجنا

« قال عامر الشعبي فأخذت بيد الحسن فقلت ياأبا سعيد أغضبت الأمير وأوغرت صدره فقال اليك عني ياعامر يقول الناس عامر الشعبي عالم أهل الكوفة أتيت شيطانا من شياطين الانس تكلمه بهواه وتقاربه في رأيه ويحك ياعامر هلا اتقيت أن سئلت فصدقت أو سكت فسلمت . قال عامر ياأبا سعيد قد قلتها وأنا أعلم مافيها . قال الحسن فذاك اعظم في الحجة عليك وأشد في التبعة .

« قال وبعث الحجاج الى الحسن فلما دخل عليه قال انت الذي تقول قاتلهم الله قتلوا عباد الله على الدينار والدرهم ؟ قال نعم قال ماحملك على هذا ؟ قال ماأخذ الله على العلماء من المواثيق « ليبيننه للناس ولا يكتمونه » قال ياحسن أمسك عليك لسانك وإياك ان يبلغني عنك ما أكره فأفرق بين رأسك وجسدك . »

أقول وقد ساق المصنف هذه الحكاية في كتاب ذم الجاه والرياء مطولة بما هو أبلغ في العبرة والفرق بين علماء الدين الذين لايخافون في الله لومة لائم وعلماء الدنيا الذين يتقربون الى الامراء والسلاطين بما يرضيهم من سخط الله تعالى قال

« وروي عن سعيد بن أبي مروان قال كنت جالسا الى جنب الحسن اذ دخل علينا الحجاج من بعض أبواب المسجد ومعه الحرس وهو على برذون أصفر فدخل

المسجد على برذونه (١) فجعل يلتفت في المسجد فلم ير حلقة أحفل من حلقة الحسن فتوجه نحوها حتى بلغ قريباً منها ثم ثنى وركه فنزل ومشى نحو الحسن فلما رآه الحسن متوجهاً اليه تجافى له عن ناحية مجلسه قال سعيد وتجافيت له أيضاً عن ناحية مجلسي حتى صار بيني وبين الحسن فرجة ومجلس للحجاج فجاء الحجاج حتى جلس بيني وبينه والحسن يتكلم بكلام له يتكلم به في كل يوم (٢) فما قطع الحسن كلامه . قال سعيد فقلت في نفسي لأبلون الحسن اليوم ولأنظرن هل يحمل الحسن جلوس الحجاج اليه ان يزيد في كلامه يتقرب اليه أو يحمل الحسن هيبة الحجاج ان ينقص من كلامه . فتكلم الحسن كلاماً واحداً نحواً مما كان يتكلم به في كل يوم حتى انتهى الى آخر كلامه فلما فرغ الحسن من كلامه وهو غير مكترث به رفع الحجاج يده فضرب بها على منكب الحسن ثم قال صدق الشيخ وبر فعليكم بهذه المجالس وأشباهها فاتخذوها خلقاً وعادة فانه بلغني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ان مجالس الذكر رياض الجنة ولولا ما حملناه من أمر الناس ما غلبتمونا على هذه المجالس لمعرفتنا بفضلها . قال ثم افتر الحجاج فتكلم حتى عجب الحسن ومن حضر من بلاغته فلما فرغ طفق فقام . فجاء رجل من أهل الشام الى مجلس الحسن حيث قام الحجاج فقال عباد الله المسلمين ألا تعجبون اني رجل شيخ كبير واني أغزو فأكلف فرساً وبغلا وأكلف فسطاطاً وان لي ثلاث مئة درهم من العطاء وان لي سبع بنات من العيال : فشكا من حاله حتى رق له الحسن وأصحابه والحسن مكب فلما فرغ الرجل من كلامه رفع الحسن رأسه فقال ما لهم قاتلهم الله اتخذوا عباد الله خولا ومال الله دولا وقتلوا الناس على الدينار والدرهم فاذا غزا عدو الله غزا في الفساطيط الهبابة (أي العالية المشرفة) وعلى البغال السباقة واذا أغزى أخاه أغزاه طاوياً راجلا : فما فتر الحسن حتى ذكرهم بأقبح العيب وأشده فقام رجل من أهل الشام كان جالساً

(١) لعل المسجد كان لايزال مفروشاً بالرمل على طريقة الصدر الأول أو لعل الحجاج دخل بالبرذون الى صحنه دون موضع الصلاة (٢) يريد بقوله يتكلم به كل يوم انه يتكلم بمثله في الوعظ وبيان الحق كما يعلم من لاحق الكلام

الى الحسن فسعى به الى الحجاج وحكى له كلامه الذي تكلم به (١) فلم يلبث الحسن أن أتته رسل الحجاج فقالوا أجب الأمير فقام الحسن وأشفقنا عليه من شدة كلامه الذي تكلم به فلم يلبث الحسن أن رجع الى مجلسه وهو يتبسم وقلما رأيته فاغرافاه يضحك انما كان يتبسم فأقبل حتى قعد في مجلسه فعظم الأمانة وقال إنما تجالسون بالامانة (٢) كأنكم تظنون أن الخيانة ليست الافي الدينار والدرهم ان الخيانة أشد الخيانة ان يجالسنا الرجل فنطمئن الى جانبه ثم ينطلق فيسعى بنا الى شرارة من نار، اني أتيت هذا الرجل فقال أقصر عليك لسانك وقولك اذا غزا عدوّ الله كذا وكذا واذا أغزا أخاه أغزاه كذا لاأبا لك تحرّض علينا الناس أما انّا على ذلك لانتهم نصيحتك فأقصر عليك من لسانك قال فدفعه الله عني . وركب الحسن حمارا يريد المنزل فبينما هو يسير اذ التفت فرأى قوما يتبعونه فوقف فقال هل لكم من حاجة أو تسألون عن شيء والا فارجعوا فما يبقى هذا من قلب العبد

قال الغزالي بعد ايراد هذا الاثر: فبهذه العلامات وأمثالها تتبين سريرة الباطن ومها رأيت العلماء يتغايرون ويتحاسدون ولا يتوانسون ولايتعاونون فاعلم انهم قد اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فهم الخاسرون اللهم ارحمنا بلطفك ياأرحم الراحمين . اه

أقول وان حاجتهم الى التعاون في هذا العصر أشد منها في عصر الحجاج فان المسلمين اليوم على خطر وأمراؤهم وملوكهم لايذكرون مع ملوك بني أمية وامرائهم حتى الحجاج فأولئك قد فتحوا المالك وهؤلاء أضاعوها وأولئك حفظوا من الشريعة ماعدا جعل أمر المسلمين شورى بينهم فانهم جعلوه ملكا قوامه العصبية وهؤلاء أضاعوا الشريعة الاقليلا هو على خطر من جهلهم وسوء ادارتهم ، وأولئك

---

(١) يوشك ان يكون الحجاج هو الذي أوعز الى الشاميين بمثل مافعلا ليعلم هل تدفع معاملته للحسن شيئا من كلامه فيه وفي حكومته (٢) الجملة حديث رواه العسكري وابن المبارك والخرائطي بهذا اللفظ عن ابن عباس ورواه غيرهم بألفاظ أخرى

كانوا يعدلون في الاحكام ويساوون الناس في الحقوق فلا يظلمون الا من نازعهم في أصل سلطتهم وهؤلاء يظلمون في كل شيء ويبيعون الحقوق بالرشوة . وقد رأيت أن من علماء السلف من كان يغلظ لهم وينفر الناس من أهل سلطتهم ويغيظ أشدهم سفكا للدماء كالحجاج أفلسنا أحوج الآن الى ذلك . الخلاصة أنه لا بد من اجتماع العلماء وتعاونهم على فريضة النصيحة مادام في القوس منزع وفي السلطة الاسلامية رمق .

(للآثار بقية)

التعصب وأوربا والاسلام

للكلام دول تحالف دول الحقائق تارة وتخالفها تارة، ورب خلاف يجر الى خلاف وخلاف ينتهي بخلاف . قد يتهم الخلي بالعشق حتى تجعله التهمة عاشقا وقد يذكر الكذوب الكذب حتى يكون صادقا ، مرت على الشرق الاحقاب والقرون ودرجت فيه الأجيال والقرون ، وهو كما تعلم مشرق الاديان ، ومنبت جميع أصناف الانسان ، ولم يقع فيه بين المختلفين في الدين المتجاورين في البيئة من الغلو في التعصب عشر معشار ما وقع من أهل أوربا الذين اتحدوا باسم الصليب على ابادة المسلمين أو ما وقع من تعصب نصارى هذه القارة على الوثنيين فيها بل ولا عشر معشار ما وقع من أهل المذاهب النصرانية بعضهم مع بعض فاوربا منار بركان التعصب الديني في الأرض كما بينا ذلك في مقالات نشرت في أعداد السنة الاولى

لما رجعت دول أوربا المتحدة من حروب الصليب في الشرق مغلوبة على أمرها عاجزة عن بلوغ منتهى ماحددته لها تعصبها عالمة أنها دون المسلمين في القوة الحربية والقوة العلمية والادبية أخذت تستعد في العلم والعمل فكان خذلانها في تلك الحرب مبدأ حياة جديدة لها على حين كانت حياة المسلمين السابقة أخذت بالضعف والتحول فاستفادت من الانكسار ، مالم نستفد من الانتصار ، ومازالوا يرتقون فيما تركناه لهم من علم وصناعة واجتماع واعتصام ، ونحن نتدلى الجهل والكسل والتفرق والانفصام ، حتى دالت لهم الدولة ، وعادت لهم الكرة ، فسادوا علينا واستولوا على أكثر بلادنا وقد عاملنا أكثرهم بالشدة والقسوة حتى ضبطت بعض دولهم